مديرية أســـوان

والحد الفاصل بين مصر والسودان

بقلم رشوان أحمد صادق

B . A في الجغرافيا

أتحدث اليوم عن علاقة مصر بالأقاليم الجنوبيـة واهتمام المصريين بالحدود المصرية الجنوبية منذ بدء التاريخ الى اليوم فأقول :

أول من اهتم بالجهات التي تتاخم حدود مصر الجنوبية هو الملك ببي الأول ثاني ملوك الأسرة السادسة فأرسل القائد أونا (Una) الى كروسكو ليجمع بعض أنواع الأخشاب فساعده قبائل تلك الجهات على أداء مهمته واعترفوا بسيطرة الملك ببي عليهم . ثم أرسل الملك متوسوفيس (وهو الملك الثاني عشر من ملوك الأسرة السادسـة) القائد هرخف لغزو بلاد بنت فعاد يحمل البخور والآبنوس والعاج والجلود حملها على ثلثمائة حمار وحمل معه قزماً من الدنقس أتى به من (بر الأظـلال) . فلما وصل مصر كان الملك متوسوفيس قد مات وخلفه أخوه الملك ببي الثاني فسر بخبر القزم فكتب إلى هرخف يأمره باحضاره إلى منف ، وهذا نص الكتاب : « واصحب معك في السفينة بعض الحفراء لحراسته كي لا يقع في الماء أو يفلت في الليل ، لأني أسر برؤية القزم أكثر من جميع ما أحضرت من بلاد بنت » ، فحفر هرخف هذا الخطاب مع خبر غزوته على واجهة قبره في جزيرة الفنتين

وفي عهد الأسرة الثانية عشرة أرسل (أوسرتسن) الأول ثاني ملوك هذه الأسرة القائد هونو Huno إلى بلاد بنت بطريق قفط والقصير لجباية الجزية من أمراء تلك البلاد ، فأدى مهمته ثم عاد . وقد جرد هذا الملك حملة بطريق النيل فامتدت حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الثاني ، وقد عثروا على حجر في هيكل جهة حلفا (نقل الآن إلى فلورنسا) وعليه صورة هذا الملك وبجانبه المشايخ الثمانية رؤساء القبائل التي تغلب عليها ؛ وفي عهد (اوسرتسن) الثالث خامس ملوك هذه الأسرة امتدت حدود مصر إلى شلال سمنه جنوباً ، وتوجد آثار هيكل من بقايا أعما ذلك العصر ، كما وجد حجران جعلا الحد الجنوبي للبلاد المصر مكتوبا على أحدهما ما معناه : « هذا حد مصر الجنوبي الذي ع في السنة الثامنة من حكم الملك أوسرتسن الثالث الخالد الذكر فلا يجوز لأحد من السود أن يتعداه إلا في سفن تحمل البا والماعز والحمير » ، ووجد على الحجر الثاني ما معناه : إن الملا شيد هذا الحجر في السنة السادسة عشرة من حكمه وجعله حـ فاصلا بين مصر وانيوبيا ، وله تمثال في تلك الجهة ، وتوج قامة من آثاره في معتوق . وفي جزيرة ارقو توجد تماثيـ وأطلال من آثار الأسرة الثالثة عشرة

وفي عهد الأسرة الخامسة عشرة التي أسسها العمالقة كان مصر في حالة اضطراب ، وهاجر كثير من المصريين إلى اتيو وكونوا معاقل أهمها معقل ارقو ، وحملوا معهم كثيرا من طر الصناعة والفنون المصرية وأصبحوا دولة منظمة في عهد الأسر الثامنة عشرة ، ولم يتم الملك لأحمس الأول أول ملوك الأسرة الثام عشرة إلا بمساعدة ملك اتيوبيا الذي زوجه من ابنته وساعـ على طرد الهكسوس من مصر ؛ ويظهر أن عاصمة بلاد الأتيوبيا هي مدينة نبته عند جبـل البرقل بالقرب من مروى ويعرف بالهيروغليفية باسم الجبل المقدس ، ودامت العلاقات الحسنة بي مصر واتيوبيا إلى عهد تحتمس الأول ثالث ملوك الأسرة الثام عشرة إذ غزا الأتيوبيين وانتصر عليهم

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة غزا رمسيس الثاني بلا اتيوبيا وأقام هيكلا في كلابشه تذكاراً لانتصاراته ويعرف الآ عند سكان كلابشه باسم بيت الولي . ورسم على الهيكل صور رمسيس الثاني وهو يحارب في عربة ، وعدة صور يتصبح منها هز الأعداء وتقديمهم القرابين له مثل الخواتم وأكياس الذهب وحـ الفهد وسن الفيل وبيض النعام . وجدد استخراج الذهب والزمر من وادي العلاقي المعروفة قديماً باسم اكيتا akita وعلى هـ الطريق قلعة يظن أنها من أعمال رمسيس الثاني

ودامت سلطة مصر على انيوبيا حتى الأسرة العشرين بعد ذلك انفصلت أتيوبيا عن مصر ، وذلك أن (سمنتوميامون أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين نفى بعض الكهنة المصريـ إلى أتيوبيا فخرجوا عن طاعته واستقلوا تحت إمرة أحد

ذلك رجعت حدود مصر إلى ما كانت عليه قبل الغزو

وفى آخر حكم الأسرة الثانية والعشرين هاجم الأثيوبيون مصر وأخذت حدود مصر الجنوبية تتراجع شمالا حتى استولى الأثيوبيون فى أيام الأسرة الثالثة والعشرين على صعيد مصر . ثم أن بعنخى ملك أثيوبيا بعد أن استولى على مصر فوجئ بخروج البلاد عليه وتقاسمها الأعيان لمدة خمسة عشر عاماً إلى أن قام أحدهم ويدعى (ابسمانيك) واستعان بجنود يونانية واستولى على جميع الأراضى المصرية وطرد الأثيوبيين وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان . ولقد ذكر (هيرودوت) خبر فرار بعض الجنود المصرية فى عهد ابسمانيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين فقال انهم ذهبوا إلى أثيوبيا واستوطنوا هناك وأطلق عليهم اسم (الأوتومولى) وعرفوا بهذا الاسم حتى القرن الأول للميلاد

وفى عهد البطالسة زحف ثامن ملوك هذه الأسرة على مملكة مروى وفتحها ثم سار جنوبا ففتح مدينة أكسوم ، ودون خبر فتوحاته باللغة اليونانية على حجر من الرخام فى ميناء (أدولس) المعروفة الآن بميناء (زولا) على عشرين ميلاً جنوبى (مصوع وهى ميناء أكسوم) ومع ذلك فقد عادت الحدود مرة أخرى إلى المحرقة فى عهد سلفه

وبعد وفاة كليوباترا آل حكم مصر إلى الرومان . وأول من تولى مصر من الرومان هو كرنيوليوس جالسن وقد ظهر من بعض النقوش على بعض الآثار أن الملك (نوباكوتاس خوانوس) ، ويظن أنه ملك نوبه ، أرسل رسلا فى أيام هذا الحاكم إلى فيلة ودخل فى حامية الرومان . وحاولت أثيوبيا غزو مصر فى عهد ملكتها (كنداكه) حينما كان الرومان مشتغلين بغزو بلاد العرب ولكنها لم تفلح . وفى عهد (نيرون) أرسل حملة للكشف عن منابع النيل فوصلت الى إقليم كثير المستنقعات ربما كان إقليم السدود الحالى ، وكانت المحرقة آخر حدود مصر أيام الرومان كما كانت أيام اليونان ، فرأى الامبراطور (ديوقلشيان) أن خراج البلاد التى بين المحرقة وأسوان لا يفى بنفقات الجند اللازمة لجمعه فلا فائدة من الاحتفاظ بهذه البلاد فاقطعها للنوبة وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان وقوى حامية الفنتين

وفى عهد الحكم العربى غزا المسلمون النوبة . قال ابن الأثير (فغزا المسلمون النوبة فرجموا بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق) وفى سنة ٢١ هـ بعث عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى عشرين ألفاً الى النوبة فمكث بها مدة ثم صالحهم وقرر عليهم الجزية ثم ، استدعاه عمرو إلى مصر ثانية ؛ وبعد موت عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله مكانه ، وكان أهل النوبة نقضوا الصلح ووصلوا إلى الصعيد فردهم وغزاهم مرة ثانية وصالحهم على أن يدفعوا ٣٦٠ رأساً من الرقيق سنوياً على ان يرسل عبد الله اليهم بعض الحبوب . ويقول المسعودى (ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدد الأمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس ، وقد كان ملك النوبة استمدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه أن ناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها . فرد المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ

وعلم من ابتياع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنتزع من أيديهم ، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيعت منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم لا يقروا للحاكم بالعبودية ، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم ، يجب علينا طاعته وترك مخالفته ، قالت كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك . ولما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس المجاورة لأسوان . وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : نوعاً من وصفنا أحراراً غير عبيد ، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة فى غير بلاد مريس) . من ذلك يتبين أن الحدود الجنوبية لمصر لم تكن محددة تماما أيام العرب ، إذ أن بعض المصريين كان يملك أراضى داخل حدود النوبة . ويقول المقريزى إنه فى سنة ٨٧٠ م ذهب

أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري الى محاربة النوبة ورجع غانما . ويفهم من كلام المقريزي أنه في سنة ٩٥٦ م أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن على عسكر مصر من قبل (أنوجور بن الأخشيد) سنة ٩٥٧ م برا وبحرا وأسروا بعض النوبيين الذين ضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة ، وسار الخازن حتى فتح مدينة أبريم ، وقدم الى مصر سنة ٣٤٥ هـ بغانم وخمسين أسيرا . وقال ابن الأثير (في سنة ١١٧٣ م سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر الى النوبة فوصل الى أول بلدهم . وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر ، فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فان قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها . فجهز شمس الدين وسار الى أسوان ومنها الى بلاد النوبة ، فنازل قلعة اسمها أبريم فسلمت ، فأقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه ، فتركها وعاد الى مصر بما غنم من العبيد والجواري) . وقال المقريزي عن توران شاه هذا ما يأتي : (وأعطاه صلاح قوص وأسوان وعيذاب ، وجعلها له اقطاعا ، فكانت غيرتها في تلك السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار ، ثم خرج لغزو النوبة سنة ١١٧٤ وفتح قلعة ابريم) . واستمر غزو المماليك لبلاد النوبة مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم . ويقول ابن خلدون إن قلاوون عند ما غزا النوبة أرسل السفن بالبحر . ويقول ابن خلدون (ثم انتشر أحياء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها أيام الناصر بن قلاوون وماؤوها عيثا وفسادا ، وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم ، لأن أمهاتهم من بنات ملوك النوبة على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم ، وليس في طريقة استيلائهم شيء من السياسة الملوكية للأمة التي تمنع من انقياد بعضهم الى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد) . الى أواخر القرن الثامن الهجري .

وبقوا كذلك شيعاً على كل شيعة منهم رئيس أو ملك الى قام الفنج في سنار سنة ١٥٠٥ الى الشلال الثالث ثم ك الفتح العثماني لمصر بيد السلطان سليم سنة ١٥٢٠ فأرسل جيو الى النوبة فملكوها من أسوان الى الشلال الثالث وعرفة (بالغز) وعرف حكامهم (بالكشاف) وهكذا انقسمت بلا النوبة بين ملوك الفنج والكشاف الى أن كان الفتح المصر للسودان سنة ١٨٢٠ م أي سنة ١٢٣٦ هـ فخضعت لمصر

وفي عهد محمد علي امتدت حدود مصر جنوباً بعد فتح للسودان وكانت تدخل اسوان في مديرية اسنا ، ثم أحدث تعديلا بأن ضم مديرية اسنا الى مديرية قنا وصارتا واحدة ، انفصلتا بعد ذلك وامتدت الحدود المصرية الى أعالي النيل أ خلف محمد علي خصوصاً في عهد اسماعيل . واستمرت مديرية اس حتى سنة ١٨٨٧ وكان مركزها اسنا . ولما ازدادت الثورة المهد في السودان وكادت تمتد الى الحدود رأت الحكومة تحصي الحدود المصرية بقوة عسكرية وجعلت البلاد هناك تحت الأحكا العسكرية فصدر قرار مجلس الوزراء في ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٨ بتقسيم مديرية اسنا الى قسمين : الأول يشمل الجهات التي بين وادي حلفا وجبل السلسلة تتكون منه مديرية تسمى مديرية الحدود ومركزها اسوان . وأما الأقاليم شمالي جبل السلسلة فتضم الى مديرية قنا وعلى ذلك ألغيت مديرية اسنا وتكونت مديريا الحدود من مراكز ادفو وأسوان وكرسكو (الآن الدر وحلفا) وضمت بقية البلاد الى قنا واستمرت مديرية اسوان باسم مديرية الحدود الى أوائل سنة ١٨٩٩ حينما تحددت الحدود بين مصر والسودان ، وذلك أنه لما أعيد اخضاع السودان عمل اتفاق بين مصر وبريطانيا في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ بأن يصبح السودان حكومة مصرية انجليزية وأصبح خط عرض ٢٢ شمالا هو الحد الفاصل بين مصر والسودان وبناء على ذلك دخلت عشرة بلاد من قرى مصر العليا في حكومة السودان وهي : سرة شرق . فرس . جزيرة فرس . دبيرة . شرة غرب . اشكيت . ارقين . أدفيم . عنقش . دبروسة (وتعرف الآن بالتوفيقية) وبعد هذا التغيير أطلق على مديرية الحدود اسم مديرية اسوان ابتداء من سنة ١٨٩٩ م

مصطفى أحمد صادق